

الشكل الخارجى للموشحة

- ٨ -

قوافى الموشحات

لا نكاد نجد نظام القافية الموحدة الا عند العرب فى اشعارهم . ويؤكد ذلك الفارابى فى «الموسيقى الكبير» ، ان القافية فى الشعر العربى لم تلق اى اهتمام من الباحثين حتى اليوم ، وتكاد تمثل نظاما رتبيا صارما ، يتصل بعنف بحياة العرب وسلوكهم من ناحية ، ثم يتصل بطبيعة اوزان اشعارهم من ناحية اخرى . والاشكال الذى تثيره الموشحات هو انها خرجت على رتابة نظام القوافى العربية خروجا فى ظاهره يمثل ثورة كبرى ، وفى باطنه هو رتابة جديدة ليست بهذه الدرجة من الثورية .

وما نستشفه من مقدمة دار الطراز - وهى النص النظرى الوحيد حول الموشحات عند القدماء اذا صرفنا النظر عن بعض العبارات الغامضة هنا وهناك - هو ان القوافى لها وظيفة بنيوية وعروضية فى الموشحات . فالخلاف فى نظام القوافى بين الأبيات والأقوال ، أى بين الثابت (قوافى الأقفال) والمتغير (قوافى الأبيات) فى كل مقطوعة هو أبرز صفة بنيوية فى الموشح ، ثم تدخل القوافى فى اخراج البحر العروضى عن نظامه الخليلى هو أبرز خاصية موسيقية للموشح نستنتجها من كلام ابن سناء الملك . والسؤال الكبير : ما سر تعدد القوافى فى الموشح ؟ كيف حدث ذلك ؟ اننا سنجد «فى الفصول القادمة» بعض عناصر الخروج على العروض العربى ، وبعض أنظمة تجريبية تنتمى لأسلوب التوشيح ، تكاد تدخل اشعارا كثيرة فى نطاق جنس التوشيح ، ويحول دون ذلك افتقارها لنظام القوافى ، حتى ان هذا النظام يكاد يكون العامل المحدد الذى يضىء على القصيدة صفة الموشح من عدمه . اننا لا نستخرج من كلام ابن سناء الملك الأسباب الكامنة وراء ضرورة تعدد القوافى فى الموشح سوى سببين :

١ - السبب الأول ، وهو أن تطويع الشعر للغناء يحتاج لبعض الزوائد التى لا تتحقق الا بوقفات واطافة حركات وهذه الوقفات فى الشعر ارتبطت بشكل حاسم بنهاية البيت الشعرى التقليدى (ضربه) ، أى القافية ، فقد تكون هناك وقفة فى نهاية الشطر الاول (العروض) من البيت التقليدى لكنها غير

حاسمة ففي كثير من الأحيان تنقسم الكلمة الى جزئين أحدهما ينهى الشطر الاول والآخر يستأنف الشطر الاول ، أى أن البحر العروضى الخليلي يحمل صفة الاتصال حتى نهايته محبذا وقفة قصيرة جدا في منتصف البيت (لكنها غير ضرورية) أى في نهاية الشطر الاول بعكس الوقفة الطويلة نسبيا في نهاية البيت ، أى في قافيته . فالزائدة المضافة في منتصف كل شطر من شطري البيت التقليدي ، ليست اضافة حسابية لمقاطع لكسر البحر ، بقدر ما هى وقفات ايقاعية طويلة يتطلبها التلحين . وهذه الوقفات ليست الا «قوافي» بالنسبة للشاعر العربى . والقوافي تتطلب التزاوج حتى تحمل هذه الصفة . وقد حدث ذلك من قبل الموشحات في الأراجيز ، فهى فيما يبدو لهدوء بحر الرجز ونثرته وحاجته عند الانشاد أو الغناء لوقفات ايقاعية طويلة نسبيا لكسر نثرته وضبط نظامه المهلهل . من ثم ، قد وضعت قوافي في نهاية كل شطر . فالاختياج الموسيقى - مع تطور الموسيقى العربية نتيجة تأثرها بالموسيقى الفارسية والرومية - أدى الى وقفات متتالية على مسافات قصيرة أدت الى تجزئة البيت التقليدية ، والتجزئة تعنى وقفات طويلة نسبيا أى قوافي ، ومن هنا نشأ نظام تعدد القوافي .

٢ - وما دام الوزن المستجد استجابة لموسيقى مستجدة ارتبط بقوافي مستجدة ، فان انقسام الموشح الى أبيات واقفال أيضا كان استجابة لتنوع لحنى . فالموسيقى «يحتاج الى أن يغير شد الأوتار عند خروجه من القفل الى البيت ، وعند خروجه من البيت الى القفل ، وهذا مكان ينبغى أن يلحظ ويحفظ» (١) . وهذا يعنى تنوعا للوزن الواحد بين القفل والبيت ، والتنوع يحتاج الى وقفات في مواضع مختلفة أو الى عبارات تخلق وقفات قبلها وبعدها أى الى قواف قبلها وبعدها ، ولما كان اللحن منتظما ، فان هذه الوقفات انتظمت كما لاحظنا في استعراضنا لنظام قوافي الأقفال فردية عدد الفقرات ، وكما هى فى الأبيات .

وإذا كان الامر كذلك ، فلماذا تثبت القوافي داخل كل بيت وتختلف من بيت الى بيت ؟ ولماذا تتعدد - بنظام ما - داخل كل قفل ، وتثبت فى كل اقفال الموشح ؟ الاجابة بالضرورة ترتبط بنظام اللحن والغناء ، فالبيت يغنيه مغن فردى وتنوع القوافي من بيت الى آخر لا يفسد مواضع الوقف - فلا زحاف ولا طى ولا اقواء

(١) راجع الصفحات السابقة : كلام ابن سناء الملك عن قسم الموشحات التى يتباين فيها وزن القفل عن البيت تباينا ظاهرا ، وهذا النص بالغ الأهمية فى تصورنا فطريقة غناء الموشحات «التامة» على الأقل فلا بد من البدء بالقفل «عند خروجه من القفل الى البيت ، وعند خروجه من البيت الى القفل» ، فالبدء هو القفل .

ولا تخالف في الموشحات - لكنه يتيح فرصة لتنوع القوافي في كل بيت حسب تنوع الحناجر مع تدخل المغنى الفردى الجديد في اطراد طبقا لنظام النوبة - تناوب المغنين في الغناء في اتجاه يبدأ من يمين المغنى الذى يبدأ ، وكل واحد يغنى بيتا تاليا للبيت الذى غناه سلفه - حتى ينتهى الموشح . أما ثبات قوافي القفل على طول الموشحة - مع تعدد نظامها داخل كل قفل فلأن القفل تغنيه جوقة ، والجوقة ثابتة ، وقد يحدث ألا تغنيه الجوقة حيث تكتفى بترديد المطلع بينما يغنى المغنى الفردى بعدها البيت ثم القفل ، وهذا يعنى أهم شىء فى الموشح ، وهو أن بؤرة اللحن وتميزه يكمن فى القفل ، وانتهاء المغنى الفردى به دليل لضبط اللحن عند الجوقة التى تردد المطلع ، وهما معا - أعنى المغنى الفرد المردد للقفل (بعد البيت) ثم الجوقة المردة للمطلع وهو على وزن القفل ونفس نظام قوافية - يمثلان دليلا للمغنى الفردى حتى لا يفقد اتجاه اللحن وتميزه ، وكل هذا ضرورى فى أنظمة موسيقية وغنائية ارتجالية تعتمد على الذاكرة .